الفصل الرابع

أساليب التربية

أساليب التربية هي الطرائق والوسائل التي يتم بها تحقق أهدافها وبلوغ غايتها ، وجعل الإنسان يتأثر بها ويستجيب لها . وذلك بمخاطبة عقله لتغيير قناعته وآرائه ، وبتوجيه انفعالاته وشحن عواطفه ، وبتكوين عادات حسنة لديه ، ويجب أن تتنوع هذه الأساليب ؛ فتكون عقلية علمية تعتمد على طريقة العقل في المحاكمة والإدراك وتقبل المعلومات . فتقدم له الدليل ، وتجعله يستنتج النتيجة ، وتكون أيضاً عاطفية معنوية ، تثير كوامن النفس وتشبع رغباتها وأشواقها ، وتستفيد من نزعتي الخوف والرجاء فيها فتعتمد على الترغيب والترهيب . كما تكون بالاتباع والتقليد ، بوضعه أمام بعض الأبطال والعظماء ليراقب حركاتهم ويرى أخلاقهم فيعمل على مضاهاتهم والاقتداء بهم .

ولا يجوز أن تقتصر التربية على الجانب النظري بشقيه العقلي والعاطفي . بل يجب أن تكون تربية عملية تسعى لجعل الإنسان يقوم بالأعمال الحسنة ويستفيد من العلوم التي اطلع عليها ، ويغير عاداته وطريقته في الحياة ليتبع الحق ويتجه نحو الفضيلة . والتربية العملية أسهل من التربية النظرية وأشد تأثيراً منها .

وهناك أساليب كثيرة لتحقيق هذه التربية الشاملة للعقل والنفس

obeikandl.com

والروح والجسم بجانبيها النظري والعملي ، نجملها في : التربية بالوعظ والإرشاد والتربية بالقصة والحوار ، والتربية بالتشبيه وضرب الأمثال ، والتربية بالعمل والعادة والقدوة واللعب والترغيب والترهيب[1] .

وإليك التفصيل في حدود ما يشير إليه القرآن الكريم .

١ـ التربية بالوعظ والإرشاد :

إن الوعظ هو الأسلوب المباشر الصريح في التربية ، ومن السهل الاعتماد على هذا الأسلوب ؛ فما على المربي إلا أن يتوجه بالمواعظ والنصائح إلى من يربيه ويطلب منه الامتثال لها . وخير مثال على ذلك من كتاب الله ما جاء في موعظة لقمان لابنه ، وهو ينهاه عن الشرك ، ويأمره بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويأمره بمكارم الأخلاق . قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٦ـ١٩] .

---

(١) انظر أصول التربية الإسلامية/ النحلاوي ، ص ٢٠٥ ، ومنهج التربية الإسلامية/ محمد قطب ، ص ٢١٩ـ٢٦٢ .

وبالتأمل في هذه المواعظ الغالية نجد أنها تتعلق بجوانب العقيدة والعبادة والأخلاق ، وأنها حملت الفرد مسؤولية نحو نفسه ومسؤولية نحو مجتمعه . وجعلت الإيمان والعبادة أساساً للتحلي بالأخلاق الحميدة والقيام بالواجب . وهي مواعظ واضحة لا غموض فيها ، ومقبولة لكل عاقل ، لا يأباها ويعرض عنها إلا من خبثت نفسه واتبع هواه .

ومن ذلك ما جاء في دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقبيلة عاد ، إذ خاطبهم بقوله :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٣١ـ١٣٥] .

وهكذا ذكرهم بفضل الله عليهم ، وخوفهم من العذاب ، وأمرهم بطاعته وبتقوى الله وخشيته . ولكنهم أصروا على الكفر والجحود ، فكان مصيرهم الهلاك :

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[الشعراء : ١٣٦ـ١٣٩] .

لكن الإسراف في الاعتماد على هذا الأسلوب قد يجعله مملاً ممقوتاً ، ويؤدي إلى الإعراض والنفور ؛ ولذلك يجب الاعتدال فيه وملاحظة النتائج المترتبة عليه .

٢ـ التربية بالقصة :

تعتبر القصة من أكثر أساليب التربية فعالية وأقواها أثراً ، وهي وسيلة مشوقة للصغار والكبار ، تحدث أثرها في النفس مع الشعور بالمتعة ، وتجعل الإنسان ينجذب إليها وينتبه إلى أحداثها ، ولا يشرد بذهنه عمن

يربيه . فإذا صدرت القصة عن الحكيم الخبير العليم ببواطن النفس وبما يصلحها وبكيفية إصلاحها آتت ثمارها يانعة ، وحققت الغاية منها . ولهذا كثر الاعتماد على القصة في القرآن الكريم ، وكانت قصصه طويلة حيناً وقصيرة أحياناً . وهي في كل مرة تقع في القمة من البلاغة والأسلوب البياني ، ومن الناحية الأدبية والفنية ، وبالنظر إلى مغزاها وآثارها التربوية :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

ونختار من قصصه الكثيرة هاتين القصتين لما لهما من آثار تربوية :

أ) قصة قارون :

تبدأ القصة بالتعريف بالشخصية التي تدور حولها الأحداث ، وهو رجل من قوم موسى ـ عليه السلام ـ آتاه الله المال الكثير ، فبغى وتكبر ، وخرج يختال أمام الناس ويعيث في الأرض الفساد . ثم تروي القصة نصيحة طائفة من قومه ، حذروه من عاقبة الاختيال والفرح بالمال ، وأمروه بالنظر الى الجزاء في الآخرة ، والقصد في الإقبال على الدنيا ، ونهوه عن الطغيان والفساد ، ودعوه إلى البر والإحسان . ولكنه لم يلق لهم أذناً واعية ، بل مضى في غيه ، وجحد فضل الله عليه ، وزعم أنه جمع المال بحنكته وخبرته ، وأنه ليس لأحد أن يملي عليه طريقة التصرف فيه ، ولم يتعظ بمصير الذين هلكوا من قبله وكانوا أقوى منه وأكثر أموالاً :

﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

﴿ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

[القصص : ٧٦ـ ٧٨] .

وكأن هذه الآيات تجعل القارئين والسامعين لها يتخيلون قارون يتبختر أمامهم ، ويستمعون إلى النصيحة الموجهة إليه ، وإلى استهتاره بها ، فتعرض عليهم مشهداً آخر له وهو في أبهى حلله ؛ مما جعل الناس الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها يتمنون أن يؤتوا مثله ، وجعل العلماء الذين ينظرون إلى حقائق الأمور وعواقبها يحذرونهم من عاقبة أمره ، ويرغبونهم في ثواب الله الذي أعده للمؤمنين الصالحين والزاهدين الصابرين :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾

[القصص : ٧٩ـ ٨٠] .

والمشهد الثالث من القصة يبين مصير ذلك المتكبر المغرور . إذ انخسفت به الأرض ، وابتلعت داره وأمواله ، ولم يبقَ له أثر . ولم يستطع أحد أن ينصره وينقذه :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص : ٨١] .

وهذا ما جعل أولئك الذين تمنوا أن يكونوا مثله في المشهد السابق

يشعرون بفضل الله عليهم ، ويتأكدون من صحة ما رغبهم فيه العلماء ، ويدركون أن الرزق من عند الله ، يوسعه على بعض عباده ، ويضيقه على بعضهم الآخر ابتلاء لهم ، ويعلمون أن الخسران عاقبة الكافرين والمفسدين :

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٢] .

ولا شك في أنه كان لهذه القصة أثرها الكبير في نفوس المؤمنين ، وغالبهم ضعفاء فقراء ؛ مما جعلهم لا يبالون بما عند الكافرين من القوة والمال . ثم إنها صححت النظرة إلى المال والحياة ؛ فالمال وسيلة للحياة الفاضلة وليس غاية في ذاته ، ولا يجوز أن يصبح أداة للفساد والطغيان ؛ والحياة ما هي إلا دار للعمل والابتلاء ، ولا يجوز لأحد أن ينخدع بمتاعها وزخارفها . والآخرة هي الدار التي يجد فيها كل امرىء جزاء فعله ، وهي التي يجب أن نجعلها نصب أعيننا وغاية أفعالنا لنكون من المفلحين :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص : ٨٣ـ٨٤] .

ب) قصة أصحاب الكهف :

تبدأ القصة بالإشارة إلى أن أحداثها ـ على الرغم من غرابتها ـ ليست بأعجب مما في هذا الكون الفسيح من الآيات الكثيرة الدالة على عظمة الله وقدرته وحكمته : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٩] .

وهذه الإشارة تدل على أنه كان لدى بعض الناس علم بطرف من هذه القصة العجيبة . وقد روي عن ابن عباس أن قريشاً بعثت رجالاً إلى أحبار يهود بالمدينة وقالت لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء . . فقال لهم اليهود : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حدث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ماهو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فلما سألوه قال : « أخبركم غداً عما سألتم عنه » فانصرفوا عنه . ومكث خمس عشرة ليلة لا ينزل عليه وحي حتى شق ذلك عليه وعلى أصحابه ، ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف ، وفيها خبر ما سألوا عنه من أمر الفتية والرجل الطواف[1] .

وبعد هذا التمهيد عرضت علينا لمحات قصيرة تبين خلاصة القصة وخطوطها العريضة ؛ فنرى فتية يأوون إلى الكهف ويلتجئون إلى ربهم ، فينامون سنين عديدة ثم يبعثون :

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [الكهف : ١٠-١٢] .

وبعد هذا التلخيص المشوق للقصة يبدأ التفصيل بأن ما سيقصه الله منها هو الحق اليقين ، ويأتي التعريف بهؤلاء الفتية ، فهم مؤمنون

---

(١) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ج٣ ص ٧١ ـ ٧٢ .

مهتدون ، ثبتهم الله وزادهم هدى ، فأعلنوا إيمانهم بالله خالق السموات والأرض وجابهوا قومهم الذين أشركوا دون دليل . ثم فارقوهم بعد أن لم يستجيبوا لهم ، ولجؤوا إلى الكهف طلباً للنجاة والرحمة والتوفيق من الله :

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف : ١٣ـ١٦] .

وبعد ذلك يعرض علينا مشهد الكهف وهم نائمون فيه ، ونرى أجسامهم وقد حفظهم الله من أشعة الشمس التي كانت تميل عنهم إلى جهة اليمين حين طلوعها ، وإلى جهة الشمال حين غروبها ، كما حفظهم من رطوبة الأرض ، فجعلهم يتقلبون من جنب إلى جنب ، وحفظهم من الناس لئلا يدخل عليهم أحد ، فجعلهم يبدون كالمستيقظين ، ومن الوحوش الضارية بأن جعل كلبهم باسطاً ذراعيه بالباب بهيئة الحارس لهم :

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف : ١٧ـ١٨] .

ونكاد نمسك أنفاسنا ونحن ننظر إليهم ، وإذ بهم يستيقظون بعد ذلك

السبات العميق ، ويسأل بعضهم بعضاً عن مدة لبثهم ، فأجابوا بأنها يوم أو بعض يوم على ما هو معتاد في حياة البشر ، ولعلهم أحسوا بآثار نوم طويل ، فرأوا أن يفوضوا علم ذلك إلى الله . وشعروا بالجوع ، فطلبوا من أحدهم أن يذهب إلى المدينة ويشتري لهم أطايب الطعام بما وجدوه معهم من النقود الفضية . ولم ينسوا أن يوصوه بالتلطف والحذر لكيلا يعلم بهم قومهم ، فيأمروا برجمهم أو يرجعوهم إلى دينهم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : ١٩ـ٢٠] .

والمشهد الأخير يصف لنا أمر العثور عليهم ، ويبين المغزى من القصة :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۗ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١] .

ويبدو ـ كما قال المفسرون ـ أن النقود التي دفعوها ثمناً للطعام لم تعد رائجة منذ أمد بعيد ، مما جعل الباعة يوشون بالذي دفعها ، ويظنون أنه عثر على كنز[1] . ولعلهم كانوا يروون قصتهم عن أسلافهم ، مما جعلهم يجزمون بأنه واحد من أولئك الفتية ، ويتتبعون أثره حتى عثروا عليهم . ولكن هؤلاء الذين عثروا عليهم لم يكونوا مشركين ، إذ لم يبطشوا بهم ، وإنما أقاموا مسجداً في تلك البقعة تبركاً بهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج٣ ص ٧٧ .

وقد دلت القصة على أن الله ـ تعالى ـ استجاب لهؤلاء الفتية المؤمنين ، فنجاهم من القوم الكافرين ، ونشر عليهم من رحمته ، وهيأ لهم من أمرهم مرفقاً ورشداً . ودلت أيضاً على البعث والنشور ، فكما بعثهم الله بعد سنين عديدة فإنه يبعث الأموات يوم القيامة .

ثم عقبت الآيات بذكر أقوال الناس في عددهم ، ونهت عن الخوض في التفاصيل التي لم يخبر بها مما لا طائل تحته :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٢] .

وقد ضعف الله القولين الأولين في عددهم بقوله : (رجماً بالغيب) وسكت عن القول الثالث ، مما جعل بعض المفسرين يستنتجون صحته ويقولون : هم سبعة ، وإن كان الأجمل في ذلك تفويض الأمر إلى الله علاّم الغيوب[1] والعبرة في وقائع القصة ، وليست في عددهم وأسمائهم وأعمارهم وغير ذلك من التفاصيل التي يهتم بها القصاص .

وينتقل السياق من النهي عن الجدل في غيب الماضي إلى النهي عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه ، وإرشاد النبي وكل مؤمن ألاّ يجزم بفعل شيء في المستقبل دون أن يعلق ذلك على مشيئة الله ، وإلى الحث على ذكره وطلب هدايته وتوفيقه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ٢٣ـ٢٤] .

وما كان تأخير نزول الوحي في الإجابة عن سؤال المشركين إلا درساً

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج٣ ص ٧٨ .

عملياً لتعليق كل ما يراد فعله على مشيئة الله عز وجل .

وتنتهي القصة بذكر مدة لبثهم وتفويض العلم إلى الله والثناء عليه والإرشاد إلى التوكل عليه :

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٥ـ٢٦] .

وتحديد هذه المدة هام ، إذ لو كانت قصيرة كما ظنوا لأول وهلة لما كان لها شيء من الأهمية ؛ ولهذا ذكرت على سبيل الجزم ، ولم تذكر أقوال المختلفين فيها .

وقوله : (ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً) يعني أن المدة هي ثلاثمئة سنة شمسية دون زيادة ، وإذا حسبناها بالسنوات القمرية فتزيد تسعاً وتصبح /٣٠٩/ تسعاً وثلاثمئة سنة . وهذا ما دل عليه الحساب الدقيق للفرق بين التقويمين خلال تلك المدة . ولم يكن ذلك الفرق معلوماً حين نزول الآيات ، مما جعل العلماء يرون فيها نوعاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم .

وإن تلقي هذه الآيات يدل على علم الله الشامل لكل شيء ، وعلى قوة سمعه وبصره ، وعلى تفرده في الحكم وتنظيم الكون وشؤون الخلق ، وعلى ضرورة الاعتماد عليه والالتجاء إليه .

الثمرات التربوية :

لقصة أصحاب الكهف ثمرات تربوية هامة ، وهي درس قيم للمسلمين المستضعفين الذين كانت حالهم في مكة بين الكفار الذين يتربصون بهم شبيهة بحال أصحاب الكهف . وما أشبه حال المسلمين

بحال الذين لجؤوا إلى الكهف ، حين كانوا يأوون إلى دار الأرقم في بدء الدعوة ، وحين هاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، بل إن إيواء النبي وصاحبه إلى الغار حين الهجرة ، وتوكله على الله حين كاد المشركون يعثرون عليهما هو شبيه بما جرى لهؤلاء الفتية :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة : ٤٠] .

وقد أشادت القصة بأهمية الفتيان الشباب ، فهم أقدر على تفهم الدعوة إلى الحق ، وأشد حماساً لنشرها ، حتى إنهم ليضحون في سبيلها بأنفسهم وأعز ما لديهم . وكان غالب أصحاب النبي من الشباب . أما الشيوخ فيكونون قد ألفوا مانشؤوا عليه وغير راغبين في تفهم أي دعوة جديدة ، وليس عندهم من القوة ما يجعلهم يقبلون بها ويقاومون الرافضين لها ؛ ولهذا لم يؤمن منهم الا القليل ، وكان لهذه الإشادة أثرها في تعزيز الشباب المؤمن وتثبيتهم على طريق الدعوة .

وتبين القصة فضل الله على الناس ولطفه بالعباد الذين استجابوا له ، فهو يزيدهم هدى ويثبتهم وينزل عليهم الأمن والسكينة .

وبينت خطأ المشركين فيما ذهبوا إليه من تعدد الآلهة ، حين جعلتنا نستمع من أبطال القصة ما يدل على وحدانية الله : (ربكم رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذاً شططاً) .

وبينت أيضاً ضلال المشركين حين زعموا أن الأصنام آلهة دون دليل ، والعقيدة لا تقوم إلا على دليل قوي يستند إليه وبرهان له سلطان على النفوس والعقول .

وصححت تصور حقيقة الألوهية والعلاقة بين الله وعباده ، فليست هذه العلاقة قائمة على الصراع والتحدي كما تصور الوثنية الإغريقية ، وليس الله مشغولاً بالتفكير في نفسه ، ولا تجري الأحداث والوقائع دون تنظيم وتدخل إلهي كما تصور بعض الفلاسفة ، ولكن الله لطيف بعباده ، يرشدهم إلى الحق ويثبتهم عليه ، ويدفع عنهم الظلم والعدوان :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ [الحج : ٣٨] .

ثم إن القصة جعلت المسلمين ينبذون الخرافات والأساطير ، ويأخذون بالمنهج العلمي ، ولا يقبلون بفكرة أو عقيدة دون برهان . وذلك واضح في التنديد بالمشركين لأنهم اتخذوا آلهة لا برهان عليها : (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) وفي تفويض ما لا علم به إلى الله : (ربكم أعلم بما لبثتم) (قل الله أعلم بما لبثوا . قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) . وفي التنديد بمن يتبعون الظنون والأوهام ، ويلقون أقوالهم (رجماً بالغيب) .

وتعليق ما يراد فعله على مشيئة الله لا يخرج عن هذا المنهج ، لأن الإنسان لا يضمن بقاء نفسه وقوته وبقاء الشيء الذي يريد أن يعمل فيه ، ولا يدري ما يكون في المستقبل حتى يقطع فيه برأيه . وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان لا يفكر في المستقبل ولا يدبر له ، ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره ، وأن يستعين بالله على ما يعزم عليه ، ولا يستبعد أن يكون له تدبير غير تدبيره ، فإن وفقه الله إلى ما أراد حمده ، وإن جرت مشيئته بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس ، بل يبقى راضياً مطمئناً[1] .

---

(١) في ظلال القرآن/ سيد قطب ـ دار الشروق : بيروت ـ ١٣٩٤ ، ص ٢٢٦٠ ـ ٢٢٦٦ .

ولا ريب في أن اتباع المنهج العلمي وتكوين العقلية العلمية هو السبيل القويم للنهضة وبناء الحضارة . وبهذا أقام المسلمون صرح حضارة فاقت كل ماعداها .

وأهم ما في القصة من العبر والآثار التربوية أنها تدل على أن وعد الله حق في نجاة المؤمنين ، فهؤلاء الفتية التجؤوا إلى الكهف طلباً للأمن والنجاة ، ودعوا الله بأن يحفظهم ويرعاهم :

﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ .

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ . فاستجاب الله دعاءهم وحفظهم من أعدائهم ، كما حفظ أجسادهم من أشعة الشمس ورطوبة الأرض ، ومن السباع الضارية والناس العابثين . ولم يعثر عليهم إلا المؤمنون الذين أدركوا فضلهم وصلاحهم وأقاموا عليهم مسجداً لتكريمهم وتخليد ذكراهم .

وهذا ما جعل المؤمنين يمضون في طريقهم وهم واثقون بالنجاة والنصر ، غير آبهين بالمشركين الذين أرادوا أن يصدوهم عن سبيل الله .

كما دلت على قدرة الله على بعث الموتى يوم القيامة ، فهو الذي حفظ أجساد أصحاب الكهف من البلى أثناء لبثهم الطويل ، وهو يحفظ ذرات الأجساد بعد أن تفارق الحياة ، ويعلم مصير كل منها :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : ٤] .

وما الموت إلا حالة شبيهة بالنوم ، وكما يستيقظ النائمون يبعث الأموات حين النفخ في الصور :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] .

ولقد كان المشركون ينكرون البعث والنشور ، فدلت القصة على إمكان ذلك الأمر ، وقربت تصور حدوثه من أذهانهم ، مما جعلها تخدم أغراض الدعوة وتؤدي إلى ترسيخ العقيدة .

وإن الحكماء والمربين ليستنبطون العبر مما في القرآن من قصص الأنبياء وغيرهم ، ويجعلونها وسيلة من وسائل التربية القويمة :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[يوسف : ١١٠] .

٣ـ أسلوب الحوار :

يعتمد هذا الأسلوب في التربية على مقابلة الرأي بالرأي ومقارعة الحجة بالحجة بقصد تغيير رأي المعارض وجعله يقتنع بما نراه من الحقائق . ومع أنه قلما تخلو قصة في القرآن الكريم من عرض الحوار بين أشخاصها حتى يخيل إلى القارىء أنه ينظر إلى أحداث القصة تقع أمام عينيه ويستمع إلى أشخاصها وهم يتحاورون ويتجادلون ، مما يعطيها صفة الحيوية ويجعلها أكثر متعة وأشد تأثيراً على النفس . مع ذلك فإن الجدل والحوار يعتبر أسلوباً متميزاً من أساليب التربية ، ونراه بارزاً في كثير من آي الذكر الحكيم .

ولقد بين الله ـ سبحانه ـ أصول الجدل والحوار ، وندد بمن يجادل دون الاعتماد على الحقائق والأدلة الصحيحة :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج : ٨] .

وبين أن من يدفع الحق ويرفض الحقيقة هو متكبر مضل ، ومصيره الذل والعذاب :

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج : ٩] .

ونهى أن يؤدي الجدال إلى الشحناء والبغضاء ، وأمر أن يكون بالحسنى وبقصد الهداية وقبول الحق :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

والجدال بالتي هي أحسن يكون بالدعوة إلى ما التزمنا به دون تفريق بيننا وبين من نخاطبه :

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ومن المجادلة بالتي هي أحسن ماجاء في دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه إلى عبادة الله وحده ، ورده على اعتراضاتهم ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود : ٢٥ـ٣٣] .

ومنها ماجرى بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبين ملك متجبر كفر بالله وجعل لنفسه الحق في الحكم على الناس بالموت أو الحياة ، فطلب منه إبراهيم أن يغير شيئاً في سنن الكون ، فيجعل الشمس تطلع من الغرب ، فأصبح مبهوتاً مذهولاً لا يجد ما يرد به عليه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ

قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ

فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وكذلك دعا إبراهيم قومه إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم من عبادة أصنام لا يوجد دليل على عبادتها ، ولا شيء يجعل الإنسان يخاف منها ؛ فالله القادر هو الذي يجب أن يخافه الناس إذا اشركوا به ، وأن يطمئنوا إذا عبدوه :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ

قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ۖ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام : ٨٠ـ٨٣] .

ومن ذلك الحوار بين موسى عليه السلام وفرعون الطاغية :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ؟ ﴿٢٣﴾
قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾
قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ؟ ﴿٢٥﴾
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣-٢٩] .

وتهديد العتاة بالسجن والتعذيب في مثل هذا الموقف ماهو إلا عجز عن الرد المنطقي وهزيمة أمام الحق الذي يجب أن يتبع .

وأحياناً تروى القصة بكاملها بأسلوب الحوار كقصة صاحب الجنتين الكافر مع الفقير المؤمن الذي حذره من الكبر والكفر والغرور بالمال والعشيرة ، وخوفه من سوء العاقبة ، فاستمر في ضلاله وعناده حتى وقعت الكارثة ، ولم تغن عنه عشيرته شيئاً :

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ۚ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾
قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن

جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف : ٣٢ـ٤٤] .

أما إذا أدى الجدال إلى العناد والشقاق فهو حينئذ مذموم :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من ترك الكذب وهو باطل بني له قصر في ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها »(١) .

والجدال الذي يؤدي إلى الزيغ والضلال ونشر البدع منهي عنه قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم قرأ : ماضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون »(٢) .

وقال أبو عمر ابن عبد البر(٣) : « تناظر القوم وتجادلوا في الفقه ، ونهوا عن الجدال في الاعتقاد لأنه يؤدي إلى الانسلاخ من الدين »(٤) .

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن .

(٢) رواه ابن ماجه وابن عبد البر عن أبي أمامة ، والآية في سورة الزخرف : ٥٨ .

(٣) ابن عبد البر (٣٦٨ـ٤٦٣هـ) : أبو عمر ، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري . ولد بقرطبة ونشأ بها وتفقه ، وسمع من أكابر المحدثين بقرطبة وغيرها . أقام مدة في المغرب ، ثم تحول إلى شرق الأندلس ، وتولى قضاء لشبونة ، وتوفي في شاطبة . وهو إمام مجتهد وفقيه حافظ ، له مؤلفات كثيرة في الفقه والسنة والسيرة والقراءات والأدب ، منها جامع بيان العلم وفضله ، والاستيعاب في أسماء الأصحاب [المحمصاني ، أحمد بن عمر/ مختصر جامع بيان العلم وفضله ص ٤ـ٩] .

(٤) مختصر جامع بيان العلم وفضله ، ص ١٥٧ .

٤ـ أسلوب التشبيه وضرب الأمثال :

يؤدي تشبيه المعاني الذهنية المجردة بالأشياء الحسية الملموسة إلى وضوحها ، ويؤدي ضرب الأمثال إلى تقريب الأفكار من العقل وجعلها مفهومة ، كما يؤدي التشبيه والتمثيل إلى إدراك المعنى وتكوين صورة له في المخيلة ، ويجعل التأثر بتلك الصورة أشد من الأفكار المجردة ، بالإضافة إلى ما في التصوير والتشخيص الحي من الإثارة والمتعة ، مما يطرد السأم عن المتعلم ، ويجعله متقد الذهن حاضر البديهة . ولذلك كثر الاعتماد على هذا الأسلوب في القرآن الكريم ، حتى ضربت فيه الأمثال بكثير من الأشياء الصغيرة وبعض الحشرات الحقيرة :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] .

ومن ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ شبه ضلال المشركين وضعف أوليائهم الذين يلجؤون إليهم من دون الله بالأنسجة التي تنسجها العنكبوت لقنص فريستها فقال :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

[العنكبوت : ٤١] .

فالمشركون الذين يلتجئون إلى غير الله كالذبابة التي علقت ببيت العنكبوت ، وحبائل الشيطان التي أضلت هؤلاء المشركين ووسائل

أوليائهم التي أدت إلى غوايتهم شبيهة بتلك الشبكة التي علقت بها الذبابة . وأولياء المشركين كالعنكبوت الذي يمتص دم فريسته ، وأولئك الأولياء ووسائلهم في ضعف العنكبوت وبيته . وفي هذا المثل ما يكفي للتنفير من عبادة غير الله عز وجل .

ومنه تشبيه الأصنام والآلهة التي يعبدها المشركون بالذباب لضعفه وحقارته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

فأول صفات الله التي تجعله مستحقاً للعبادة القدرة على الخلق ، وكل ما عبد من دون الله عاجز عن خلق حشرة حقيرة كالذباب ، بل إن الأصنام التي يعبدها المشركون عاجزة عن استرداد ماقدم لها من الطعام إذا سلبه الذباب . وسواء أكان الطالب هو الصنم والمطلوب هو الذباب أم كان الطالب هو المشرك والمطلوب هو الصنم ؛ لأن الجميع ضعاف ، والله هو القوي الخالق لكل شيء والمستحق للعبادة .

وأخبر الله عن إحباط أعمال الكافرين بقوله :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

فكما أن الريح الشديدة والعاصفة القوية تبعثر الرماد ولا تبقى منه شيئاً ، فإن أعمال الكافرين تبدد فتصبح هباء منثوراً ، ولا ينفعهم شيء مما عملوه وكسبوه ، لأنهم لم يجعلوه خالصاً لوجه الله .

وأخبر أيضاً عن هذا المعنى بقوله :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى

بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٣٩-٤٠] .

وإن الذهن حين يدرك هاتين الآيتين ليتخيل صورة مسافر في الصحراء تحت أشعة الشمس المحرقة ، وقد انقطع عن الماء وأشرف على الهلاك من الظمأ ، وإذ به يتراءى له عن بعد ما يظنه ماء ، فيحاول الوصول إليه بما بقي لديه من طاقة ؛ ومهما اشتد في سيره يراه بعيداً أمامه ، حتى إذا تضيفت الشمس للغروب ، أو شاهد علامة في تلك الأرض المستوية ، فوصل إليها ، علم أنه كان يجري وراء سراب خادع ، وانقطعت أنفاسه . ويتخيل صورة راكب سفينة في خضم بحر عميق متلاطم الأمواج ، وقد تراكم عليه الضباب وغشيته الظلمات ، فلم يعد يرى مسافة ذراع عنه ، فأيقن بالهلاك وفي هذا ما يجعل كل عاقل يؤمن بالله ويخلص في عمله لوجهه الكريم .

وشبه الله المنافقين في ضلالهم وحيرتهم بعد أن عرفوا الإسلام بمن أوقد ناراً فلما سطع ضوءها وأبصر ما حوله انطفأت فأصبح في ظلام دامس . وهم في خوفهم مما يحيط بهم شبيهون بمن أصابهم إعصار فيه نار ، وانقضت عليهم الصواعق وسط ظلام شديد ، فصاروا يجعلون أصابعهم في آذانهم ، ويحاولون أن يمشوا على ضوء البرق الذي يخطف الأبصار ، وأصبحوا كمن فقد سمعه وبصره :

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

[البقرة : ١٧-٢٠] .

وشبه مضاعفة ثواب الذين ينفقون أموالهم في سبيله بالحبة التي أنبتت سنابل كثيرة في كل منها حبات عديدة :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

كما شبه ذلك بالجنة الطيبة الهواء التي تؤتي ثمارها مضاعفة حين ينزل عليها الماء :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

٥ـ التربية بالعمل والعادة :

يعد القيام بالعمل النافع أثراً من آثار التربية وهدفاً من أهدافها ولا قيمة لفكرة نظرية مالم تؤدِ إلى نتيجة عملية . ولذلك كان من دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع » . (رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة) .

وكان يقول إذا أصبح : « اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً » . (رواه ابن عبد البر من حديث أم سلمة) .

ويدل على أهمية العمل وعدم جدوى الأفكار النظرية ما لم تكن مصحوبة به اقتران العمل الصالح بالإيمان في كثير من آيات الذكر الحكيم :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

[المائدة : ٩] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [هود : ٢٣] .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ [الرعد : ٢٩] .

ولا يحصل طالب العلم على الثواب حتى يعمل بعلمه :

عن عبد الرحمن بن غنم قال : حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : كنا نتدارس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال :

« تعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فلن يأجركم الله حتى تعملوا »[1] .

ولا يرسخ العلم إلا بالعمل ، ولا يسمى عالماً من لم يعمل بعلمه :

عن علي[2] ـ رضي الله عنه ـ قال : « يا حملة العلم اعملوا به ، فإن العالم من علم ثم عمل ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم ، تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف عملهم علمهم ، يقعدون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً ، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه ، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل »[3] .

---

(١) رواه ابن عبد البر .

(٢) علي بن أبي طالب (٢٣ ق . هـ ـ ٤٠هـ ، ٦٠٠ـ٦٦٢م) : أبو الحسن ، ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ربي في حجره ، وزوجه بنته فاطمة . وهو أول الناس إسلاماً شهد المشاهد كلها عدا تبوك ، اشتهر بالفروسية والشجاعة والعلم الغزير ، بويع بالخلافة بعد مقتل عثمان ، ومدة خلافته خمس سنوات [ابن حجر/ الإصابة ج٢ ص ٥٠١ـ٥٠٣] .

(٣) رواه ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم وفضله ص ٩٧ .

obeikandl.com

ولا يتأثر الناس بقول العالم حتى يعمل بعلمه :

قال مالك بن دينار[1] : « العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلب كما يزل الماء عن الصفا »[2] .

والعمل بالعلم يمكّن من تعلم المزيد : « من عمل بما علم أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم »[3] .

ويبقى التعليم النظري باهتاً ضعيف الأثر حتى يقترن بالتعليم العملي ؛ فلتعلم قيادة السيارة مثلاً لا يكفي أن تتعلم كيف تدير المحرك وتجعلها تسير ، بل لابد من محاولة ذلك وتكراره عملياً حتى تكتسب المهارة المطلوبة .

ولقد اعتمد هذا الدين على التربية بالعمل من أول الدعوة ، فكان الواحد من الصحابة حين يعتنق الإسلام يدفعه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى من يعلمه القرآن الكريم ، فيتعلم عشر آيات ويقول لمن يعلمه : دعني حتى أذهب وأعمل بهذه الآيات ثم أعود فأتعلم غيرها :

عن ابن مسعود[4] قال : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم

---

(١) مالك بن دينار (٠٠ـ١٣١هـ) : أبو يحيى ، مالك بن دينار البصري . كان عالماً زاهداً كثير الورع لا يأكل إلا من كسبه [ابن خلكان/ وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٨٧ـ٢٨٨] .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ؛ اختيار محمود يوسف زايد ،ق١ ، ص ٨٨ .

(٣) رواه أبو نعيم من حديث أنس : كشف الخفاء .

(٤) عبد الله بن مسعود (٠٠ـ هـ) : ـ أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن مسعود الهذلي ، حليف بني زهرة ، أسلم قديماً ، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً والمشاهد بعدها . لازم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحدث عنه كثيراً . وشهد فتوح الشام ، وسيره عمر بن الخطاب إلى الكوفة ليعلم أهلها ، عاش بضعاً وستين سنة ، ومات بالمدينة . قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إنك لغلام معلم » ، وقال : =

يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : « حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ؛ فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً »[1] .

وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أصحابه أحكام الدين بطريقة عملية كلما كانت هذه الطريقة هي الأجدى في تعليمها :

فلتعليمهم الوضوء لم يجلسهم أمامه ويكلمهم عن أركانه وسننه وشروطه ومكروهاته ، وإنما توضأ أمامهم وأمرهم بأن يتوضؤوا مثله ، وانطلقوا يعلمون غيرهم بهذه الطريقة :

عن حُمران مولى عثمان بن عفان أنه رأى عثمان دعا بوضوء[2] فأفرغ على يديه من إنائه فغسلهما ثلاث مرات ، ثم أدخل يمينه في الوضوء ، ثم تمضمض واستنشق واستنثر ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثلاثاً ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل كل رجل ثلاثاً ، ثم قال : رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ نحو وضوئي هذا وقال : « من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه »[3] .

ولم تختلف طريقة تعليم الغسل عن ذلك :

= « من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » [ابن حجر/ الإصابة ج٢ ص ٣٦٠ـ٣٦٢ ، ابن عبد البر/ الاستيعاب ٢/ ٣٠٨ـ٣١٦] .

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص٣ .

(٢) أي بماء يتوضأ به .

(٣) رواه البخاري ، ١٦٤ .

قال أبو سلمة : « دخلت أنا وأخو عائشة على عائشة[1] فسألها أخوها عن غسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فدعت بإناء نحو من صاع ، فاغتسلت وأفاضت على رأسها ، وبيننا وبينها حجاب »[2] .

وعائشة ـ رضي الله عنها ـ هي خالة أبي سلمة من الرضاع ، أرضعته أختها أم كلثوم . وقد اغتسلت أمامهما بعد أن سترت أسافل بدنها مما لا يحل للمحرم النظر إليه . وظاهر الحديث أنهما رأيا عملها في رأسها وأعالي جسدها مما يحل نظره للمحرم .

والحديث يدل بشكل واضح على أن التربية العملية هي الطريقة المفضلة في التربية كلما كانت ميسورة . وقد قال الإمام ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث : « وفي فعل عائشة دلالة على استحباب التعليم بالفعل لأنه أوقع في النفس . ولما كان السؤال محتملاً للكيفية والكمية بينت لهما ما يدل على الأمرين معاً : أما الكيفية فبالاقتصار على إفاضة الماء ، وأما الكمية فبالاكتفاء بالصاع »[3] .

وكذلك علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه الصلاة بأن صلى أمامهم وقال لهم : « صلوا كما رأيتموني أصلي »[4] .

وكان الصحابة يعلمون التابعين الصلاة بهذه الطريقة :

---

(١) عائشة أم المؤمنين (٩ ق .هـ ـ ٥٨هـ) : عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . ولدت بعد البعثة بأربع سنين ، وتزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي بنت ست أو سبع ودخل بها في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع ، وتوفي عنها وعمرها ثماني عشرة سنة ، كانت فقيهة عالمة بالطب والشعر ، روي عنها أحاديث كثيرة ، ودفنت بالبقيع [ابن حجر/ الإصابة ج٤ ص ٣٤٨ـ٣٥٠] .

(٢) رواه البخاري ، ٢٥١ .

(٣) فتح الباري/ ابن حجر العسقلاني ـ دار المعرفة : بيروت ، ج١ ص ٣٦٥ .

(٤) رواه البخاري وأحمد والدارمي عن مالك بن الحويرث .

حدث أيوب عن أبي قلابة قال : جاءنا مالك بن الحويرث في مسجدنا هذا فقال : إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة ، أصلي كيف رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي . فقلت لأبي قلابة : كيف كان يصلي؟ قال مثل شيخنا هذا[١] .

والشيخ هو عمرو بن سلمة .

وحج الرسول ﷺ مع أصحابه ، وهم يقومون بما يقوم به من الأعمال ، وقال لهم بعد أن علمهم الحج بالطريقة العملية : « خذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه »[٢] .

وقد احترم الإسلام العمل وكرّم العمال في الحين الذي كان فيه العرب يحتقرون الأعمال اليدوية ويحطون من شأن أصحاب الحرف . وكذلك كان اليونان يحتقرون الأعمال اليدوية ، واعتبرها أرسطو جديرة بصغار العقول أو الذين لا عقول لهم ، وتتناسب مع العبيد فقط ، واعتقد أن العمل اليدوي يؤدي إلى بلادة العقل وإتلافه ، ولا يترك وقتاً و نشاطاً للذكاء السياسي[٣] .

وبذلك كان للإسلام فضل السبق على لوثر الذي نادى بأن تكون التربية العملية والعمل في إحدى المهن إلى جانب التربية النظرية ، ورأى أن يرسل الفتيان إلى المدرسة ساعة أو ساعتين في اليوم ، وأن يتعلموا مهنة فيما تبقى من الوقت[٤] .

وعلى فرنسيس بيكون الذي قرر أن الدراسة ليست غاية في حد

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه ابن عبد البر من حديث جابر .
(٣) قصة الفلسفة/ ول ديورانت ص ٩٥ .
(٤) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم . ص ٢٥٥ .

ذاتها ، وأن المعرفة إن لم تكن مقرونة بالعمل ليست سوى زهو وغرور علمي شاحب[١] .

وعلى كومنيوس الذي أطلق عليه بعضهم لقب المبشر الأول بالتربية الحديثة ، وامتازت طريقته بالعناية بالتمرينات العملية ، ورأى أن لا يكرر الدرس ويعاد على نحو آلي حتى يحفظ عن ظهر قلب ، بل أن يعتاد الطالب العمل المثمر والجهد الشخصي ، وقال : « إن أصحاب الحرف يعرفون هذه الحقيقة حق المعرفة ، فليس بينهم من يقدم للمبتدىء دروساً نظرية عن مهنته ، بل تراهم يدعونه يتأمل ما يفعله المعلم ، ثم يضعون الآلات بين يديه ، ويعلمونه استخدامها . وبطرق الحديد يصبح المرء حداداً »[٢] .

وعلى لوك المربي الإنكليزي الذي أراد أن يعلم تلميذه مهنة من المهن كالنجارة أو الزراعة ليهيىء عن طريق هذا العمل الجسدي سلوى للفكر وفرصة للراحة والاسترخاء ، ويقدم للجسد تمريناً مفيداً . ووجه عام ١٦٩٧ تقريراً إلى الحكومة الإنكليزية دعا فيه إلى تنظيم « بيوتات العمل » للأطفال والفقراء الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة والرابعة عشرة حيث يعملون ويقدم لهم الغذاء[٣] .

وعلى روسو[٤] الذي قال : « إني لا أمل تكرار تلك الحقيقة ، وهي

---

(١) قصة الفلسفة ، ص ١٤٢ .

(٢) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ص ٢٥٩ ، ٢٦٨ـ٢٦٩ .

(٣) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ص ٣١٤ـ٣١٥

(٤) جان جاك روسو (١٧١٢ـ١٧٧٨) : ولد في جنيف ، وعندما تعلم القراءة عكف على قراءة روايات غرامية خلفت في شعوره إحساساً عاطفياً شديداً . وفي الثانية عشرة امتهن مهنة تعلم منها الغش والخيانة وسوء الخلق ، ثم أصبح جوالاً ، وحببت إليه الطبيعة ، وبعدئذ عمل خادماً ومربياً . وفي سنة ١٧٤٩ دخل في مسابقة أدبية =

أن جميع دروس الأطفال يجب أن تكون بطريق العمل لا بطريق الألفاظ . لاتعلمهم شيئاً من الكتب يمكن أن يتعلموه بطريق الخبرة[1] .

وعلى فروبل[2] الذي قال : « إن الوقت قد حان لأن نرفع أي عمل إلى منزلة النشاط الحر أي نجعله عملاً يدل على الذكاء ، وبذلك يصبح للعمل الإنشائي في المدرسة غرض أعظم وأعمق من مجرد التدريب الحسي أو نمو المهارة أو التمرين الجسمي أو التلقين بطريقة آلية أو

= موضوعها : هل عمل تقدم العلوم على تطهير الأخلاق أو على فسادها؟ وكان جوابه بالنفي ، ورأى أن الحياة الصحيحة هي التي تجري وفقاً لقوانين الطبيعة . ثم رأى أن سعادة الإنسان ورفاهيته حق طبيعي لكل فرد وليست امتيازاً لطبقة دون غيرها ، وكتب مقالاً عن أسباب التفاوت بين الناس ، ورسالة العقد الاجتماعي ، وتحتوي أهم المبادىء التي نادت بها الثورة الفرنسية . ونشر كتاب « إميل » وطرح فيه مشكلات التربية وضمنه كثيراً من المبادىء التربوية . وله كتاب « الاعترافات » ذكر فيه تاريخ حياته [عبد الدايم/ تاريخ التربية ٣١٧ـ٣٤٠ ، منرو/ المرجع ج٢ ص ٢٢٩ـ٢٦٢] .

(١) المرجع في تاريخ التربية/ بول منرو ج٢ ص ٢٤٩ .

(٢) فروبل (١٧٨٢ـ١٨٥٢) : ولد فريدريك ولهلم أوجست فروبل في قرية « أوبرفايسباخ » بمقاطعة « توربخيا » من قس بروتستانتي ، ولم يستطع أبوه أن يرسله إلى الجامعة لعجزه عن توفير النفقات اللازمة ، فأوكل أمره إلى صاحب غابات ليعلمه مهنته ، فعاش في الطبيعة ولاحظ ما فيها من حيوانات ونباتات . وقرأ كتباً في الهندسة والرياضيات ، ثم انتسب إلى جامعة « يينا » وتابع فيها دراسة الرياضيات ، ولم يلبث أن سجن بسبب عجزه عن سداد الديون المتراكمة عليه ، ثم رحل إلى فرانكفورت ليعمل في بناء البيوت ، وتعرف على مدير المدرسة فعينه معلماً للتلاميذ . وذهب لزيارة بستالوزي في « ايفردون » وأعجب بطريقته في تدريب الحواس ، وتوجه إلى الاهتمام بنمو الطفل . وافتتح مدرسة في قرية « جريسهايم » ثم نقلها إلى « كايلهاو » وقام بتعليم تلاميذه بالتماس المباشر مع الطبيعة وبتنمية طبيعتهم الإنسانية والفردية بالعمل التعاوني واللعب . وحينئذ كتب مؤلفه الشهير « تربية الإنسان » وبعده طبع كتابه « أغاني الأمهات » [عبد الدايم/ تاريخ التربية ٣٧٥ـ٣٩٢ ، منرو/ المرجع ج٢ ص٣٣٣ـ٣٦٣] .

اكتساب المهنة أو الحرفة ، بل يصبح أبرز صورة للتعبير عن الأفكار ؛ وأصلح طريقة لتكوين العادات أو تشكيل الأخلاق »[١] .

ويعد جون ديوي[٢] أبرز الدعاة في العصر الحاضر إلى تدريس العلوم عن طريق الممارسة الحقيقية النافعة للحرف والمهن لا طريق تعليم الكتب[٣] .

التربية بالعادة :

وحين يكرر الإنسان الأعمال التي تعلمها مرات عديدة تصبح عادة متأصلة في نفسه . والإنسان يخضع لعادات كثيرة في حياته ، يقوم بها تلقائياً دون أن يعيرها كبير انتباه ، ولذلك يحرص المربون على تكوين العادات الحسنة وترك العادات السيئة . ولقد نظم الإسلام حياة الناس تنظيماً شاملاً سواء في شعائرهم التعبدية أم في شؤونهم اليومية ، فجعلهم يعتادون البدء بالجانب الأيمن من أعضائهم في كل أمر حسن ،

---

(١) المرجع في تاريخ التربية/ بول منرو ج٢ ص ٣٥٩ـ٣٦٠ .

(٢) جون ديوي (١٨٥٩ـ١٩٥٢) : ولد في برلتون شرقي الولايات المتحدة ، ثم سافر إلى غربها ودرّس الفلسفة في جامعة شيكاغو وغيرها . وعاد إلى الشرق وأصبح رئيس قسم الفلسفة في جامعة كولومبيا . له عدة مؤلفات في الفلسفة والتربية والأخلاق والمنطق وعلم النفس . تجلت عبقريته بربط التربية بالحياة والمجتمع ربطاً واعياً متيناً ، وقال بأن العلم لا يحصل بقراءة الكتب ، بل بممارسة عملية للمشاغل النافعة ، ويترتب على المدرسة أن تدرب على حياة العمل والتعاون ، وتعلم بالممارسة الفنون والمباحث الضرورية للملاءمة مع النظام الاقتصادي والاجتماعي . وهدف التربية هو إنارة السبيل أمام الذهن مدى الحياة ، ويتخذ مفهوم النمو محور فكره الفلسفي ، ويعد الفرد غاية بذاته ، وصالحه المقياس للخير والشر [العوا/ التجربة الفلسفية : الحدوس الفلسفية ص ٤٦٣ـ٤٦٨] .

(٣) قصة الفلسفة/ ول ديورانت ، ص ٦٢٦ .

ففي الوضوء يسن غسل اليد اليمنى قبل اليسرى ، وكذلك الرجل اليمنى قبل اليسرى ، وفي الغسل يسن صب الماء على الجانب الأيمن من الجسم قبل الأيسر . وحين تمشيط شعر الرأس أو حلقه يستحب البدء بشقه الأيمن . وحين لبس الثوب يستحب إدخال اليد اليمنى في الكم قبل اليسرى ، وعلى العكس حين النزع يستحب البدء باليسرى . وحين دخول المسجد تقدم الرجل اليمنى ، بينما تقدم اليسرى حين الخروج منه أو دخول الخلاء . والمسلم يستعمل يده اليمنى لتناول الطعام والشراب والمضمضة والاستنشاق والمصافحة والأخذ والعطاء والكتابة ، ويستعمل يده اليسرى لإزالة الأقذار كالاستنثار والاستنجاء .

قال الإمام النووي[1] : قاعدة الشرع المستمرة استحباب البداءة باليمنى في كل ما كان من باب التكريم والتزين ، وما كان بضدهما استحب فيه التياسر[2] .

والأصل في هذه الأحكام ماروي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت :

« كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله »[3] .

وعنها قالت : « كانت يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اليمنى

---

(١) النووي (٦٣١ـ٦٧٦هـ ، ١٢٣٣ـ١٢٧٧م): أبو زكريا ، يحيى بن شرف . مولده ووفاته في نوا ، تعلم في دمشق ، وأقام فيها زمناً طويلاً ، وأصبح علاّمة في الفقه والحديث . من كتبه : تهذيب الأسماء واللغات ، ومنهاج الطالبين ، والمنهاج في شرح صحيح مسلم ، وحلية الأبرار المعروف بالأذكار ، ورياض الصالحين من كلام سيد المرسلين والأربعون النووية [الزركلي/ الأعلام ج٩ ص ١٨٤ـ١٨٥] .

(٢) فتح الباري/ ابن حجر العسقلاني ، ج١ ص ٢٧٠ .

(٣) رواه البخاري ومسلم.

لطهوره وطعامه ، وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان به من أذى »[1] .

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يربي أصحابه على هذه العادات الحسنة والآداب الرفيعة :

عن عمر بن أبي سلمة قال : « كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت يدي تطيش في الصحفة ، فقال لي : يا غلام : سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك . فما زالت تلك طعمتي بعده»[2] .

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا لبستم وإذا توضأتم فابدؤوا بميامنكم »[3] .

٦ـ التربية بالقدوة الحسنة :

يميل الإنسان إلى تقليد الكبار والعظماء والاقتداء بهم . والتربية بالقدوة ذات أثر يفوق أثر الكلام الجميل المنمق ، ففي الحديبية أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتحلل من الإحرام بعد أن تم الصلح بينه وبين المشركين على أن يرجع المسلمون في ذلك العام ، ثم يقضوا العمرة في العام الذي يليه . ولكنهم كانوا في غاية الشوق إلى البيت الحرام والطواف بالكعبة المشرفة ، فشق عليهم أن يرجعوا دون أن يعتمروا وقد أصبحوا على مشارف مكة المكرمة ، فامتنعوا عن التحلل من الإحرام رجاء أن يغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأيه . وشق ذلك عليه ،

---

(١) رواه أبو داود ، وهو صحيح الإسناد .
(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .
(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي . وهو حديث حسن .

obeikandi.com

ودخل على زوجه أم سلمة[1] وذكر لها ما لقي منهم . فقالت : يا نبي الله! اخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك ، فخرج ونحر بدنه ودعا حالقه فحلقه . وما إن رأوه يفعل ذلك حتى أيقنوا أن الأمر لا رجعة فيه فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً[2] .

ولذا يجب على الآباء والمربين أن يكونوا قدوة حسنة لأبنائهم وتلاميذهم ، فهؤلاء يميلون إلى محاكاتهم ، وينطبعون بطباعهم ويتأثرون بأخلاقهم وصفاتهم أكثر من تأثرهم بما يسمعونه من النصائح والدروس . قال عمرو بن عتبة لمعلم ولده : « ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبح عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله : ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه . وروِّهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم . وعلمهم سير الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر مني لك ، فقد اتكلت على كفاية منك »[3] .

وقال الشيخ الصالح أبو اسحاق الجبنياتي المتوفى سنة ٣٦٩ هـ :

---

(١) أم سلمة (٠٠-٦١هـ) : أم المؤمنين ، هند بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية أسلمت في مستهل الدعوة هي وزوجها أبو سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة ، وهاجرا إلى الحبشة ، ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة . تزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاة زوجها سنة أربع للهجرة . وهي آخر أمهات المؤمنين موتاً ، دفنت بالبقيع [ابن حجر/ الإصابة ج٤ ص ٤٣٩-٤٤١ ، ابن عبد البر/ الاستيعاب ٤/ ٤٠٥-٤٠٨] .

(٢) البداية والنهاية/ ابن كثير - ط أولى -- ١٩٦٦ ، ج٤ ص ١٧٦ .

(٣) العقد الفريد/ ابن عبد ربه الأندلسي - لجنة التأليف والطبع والنشر : القاهرة ، ١٣٥٩ ، ج٢ ص ٤٣٦ .

« لا تعلموا أولادكم إلا عند رجل حسن الدين ، لأن دين الصبي على دين معلمه »[1] .

٧ـ التربية باللعب :

يميل المرء إلى اللعب واللهو طيلة حياته ، ويقضي معظم وقته أثناء اليقظة في اللعب حين يكون صغيراً غير مميز ، ثم يقل انصرافه إليه مع تقدمه في السن . فإذا ما جعلنا اللعب بطريقة منظمة ذات أثر في تقوية الجسم وتنشيط العقل وتكوين الخلق أمكننا تحقيق أهداف التربية مع الشعور بالمتعة . وذلك كما في الألعاب والتمارين الرياضية التي تؤدي إلى صحة الجسم ومرونة أعضائه وقوة عضلاته ، وكما يحدث حين توضع عدة قطع أمام الطفل ، وتكون قابلة للتركيب على وجوه عديدة ، فيصنع منها دراجة أو سيارة أو طائرة أو غير ذلك . ثم يفك أجزاءها ليركبها بشكل آخر ، فينشط ذهنه وينمو عقله ، وتصبح لديه قدرة على الإبداع والاختراع .

ويمكن أن يؤدي اللعب المشترك بين عدد من الأفراد إلى تعليم النظام والتعاون ومحبة بعضهم بعضاً . ويجعل اللعب الأطفال يوجهون اهتمامهم كله نحو موضوع اللعبة ، ولا يملون منه ولا يفكرون بغيره ، وبذلك يؤدي إلى زيادة الانتباه ودقة الفهم وسرعة التعلم .

غير أن الإفراط في اللعب قد يؤدي إلى ضياع الوقت ، ويصرف عن الجد والعمل المثمر ، لذا يجب أن يسمح باللعب في أوقات محددة عقب الساعات المخصصة للدراسة والعمل ، وأن تتناسب الألعاب مع عمر

---

(١) آداب المعلمين/ ابن سحنون ؛ تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ـ دار الكتب الشرقية : تونس ـ ط٢ ـ ١٣٩٢ ، ص٤٧ .

الطفل وقدراته حتى تكون ذات أثر تربوي .

ويشير إلى اللعب قوله تعالى :

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام : ٣٢] .

وأذن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للأحباش أن يلعبوا بالحراب في المسجد في يوم عيد لما في ذلك من الفائدة في تعلم الرمي بها واتقاء ضرباتها ، ولما فيه من المتعة والبهجة ، حتى إنه جعل عائشة ـ رضي الله عنها ـ تنظر إليهم ، فعنها قالت : « رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد ، حتى أكون أنا التي أسأم ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو »[1]

وقد أدرك مربونا الكبار حاجة الأولاد إلى اللعب منذ العصر الأول في تاريخ هذه الأمة ، فقد حكى معتب بن أبي الأزهر ـ وهو من علماء القيروان في القرن الثاني الهجري ـ قال : « قال لي أبو القاسم عبد الله بن محمد في معرض حديث : ما حال صبيانكم في الكُتَّاب؟

قلت : له ولع كثير باللعب .

فقال : إن لم يكونوا كذلك فعلق عليهم التمائم » يعني أنه لا يمنع الطفل من اللعب إلا أن يكون مريضاً[2].

وقال الغزالي مبيناً الطريق في رياضة الصبيان وتأديبهم :

« وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكُتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب في اللعب . فإن منع الصبي

---

(١) رواه البخاري : النكاح .

(٢) آداب المعلمين / ابن سحنون ، ص٥٣ـ٥٤ والكُتَّاب : مكان التعليم.

من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً »[1] .

وبعد ذلك بقرون عديدة أراد رابليه[2] أن يتعلم تلميذه عن شوق ورغبة وأن يثقف وهو يلعب ، وأن يدرس الرياضيات نفسها عن طريق اللهو والتسلية ، واعتنى بالفنون المسلية[3] .

ثم جاء المربي الألماني فروبل فجعل اللعب أساساً لعملية التربية في السنوات الأولى من الحياة ، واعتبره خير وسيلة يستطيع بها المربي أن يدمج الطفل في علم العلاقات الاجتماعية كحقيقة ، وأن يلقنه معنى الاستقلال والمساعدة المتبادلة ، وأن يمده بفرصة الابتكار وبدافع الحركة ، وأن ينميه باعتباره فرداً يكون جزءاً مستقلاً من أجزاء الكل الاجتماعي . وجعل للعب قيمة خلقية وفكرية بالإضافة إلى قيمته الجسمية[4] .

٨ـ التربية بالترغيب والترهيب :

يعتبر الترغيب والترهيب حافزاً يدفع إلى التعلم الصحيح والفعل الحسن وتجنب الأخطاء ، وترك القبائح . ولا ينكر وجود عاطفتي الحب

---

(١) إحياء علوم الدين/ الغزالي ، ج٣ ص٧٣ .

(٢) رابليه (١٤٨٣ـ١٥٥٣) : كان راهباً ثم طرد من الدير ، وهو خير معبر عن آراء الإنسانيين الواقعيين ، انتقد منهج التربية القائمة على دراسة الألفاظ والكتب ، ونادى بالتربية المحتوية على العناصر الاجتماعية والفكرية والخلقية والدينية والجسمية التي تؤدي إلى الحرية في الفكر والعمل بدلاً من الاعتماد على السلطة . ورأى أن تكون مواد الدراسة سارة ، وأن تكون وسائلها جذابة لا إجبارية [عبد الدايم/ تاريخ التربية ص ٢٣٠ـ٢٣٩ ، منرو/ المرجع ج٢ ص ١١٢ـ١١٥] .

(٣) تاريخ التربية/ د . عبد الله الدائم ، ص٢٣٧ .

(٤) المرجع في تاريخ التربية/ بول منرو ، ج٢ ص ٣٥٦ـ٣٥٧ .

والكره أو الميل إلى الشيء والنفور منه في نفس كل إنسان ، فإذا حققت التربية رغبات النفس البشرية ، وأصبح ما يتعلمه المرء وسيلة للحصول على ما يرغب فيه أو النجاة مما يخاف منه ، فإنه يتأثر إلى أبعد الحدود .

وتتنوع رغبات الناس في الأشياء المادية والمعنوية ، وكلها ترجع إلى ما يحفظ عليهم صحتهم ويشبع غرائزهم ويلبي دوافعهم ويجعلهم في مكانة مرموقة ويشعرهم بالسعادة والأهمية . كما إنهم يخافون من الموت ومن فقدان ما يحتاجون إليه ومن أي ضرر يصيبهم أو يصيب أحبابهم .

وقد أبعد القرآن عن الناس الخوف من الموت حين أعلمهم أنه باب يدخلون منه إلى الدار الآخرة ، وأنه يأتي في أجل محدد ، ولا يستطيع أحد أن يمد في عمر الإنسان أو ينقص منه ساعة واحدة ، وأبعد عنهم المخاوف المجهولة حين أعلمهم أن النفع والضر بيد الله وحده ، ولا يستطيع أحد أن ينفعك أو يضرك فيما لم يأذن به الله :

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٩] .

﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الأنعام : ١٧] .

وأبعد عنهم الخوف من الفقر حين بين أن الله تكفل بأرزاق العباد ، وأن كل مخلوق يحصل على ما قسم له :

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [هود : ٦] .

ولكنه حذرهم من غضب الله ونقمته إن هم عصوه وكفروا به :

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ

حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل : ٤٥-٤٧] .

كما حذرهم من عذابه في الدار الآخرة :

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام : ١٥] .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر : ٣٦] .

وبالمقابل رغبهم بالجنات التي ينعمون فيها إن هم آمنوا به وأطاعوه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء : ٥٧] .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ : ٣١-٣٦] .

وهذا النعيم لا يقتصر على ما هو حسي مادي كما يزعم المغرضون ، بل يشمل ما هو روحي معنوي ، مما يستمتع به أصحاب النفوس الكبيرة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾

[مريم : ٩٦] .

وهم يشعرون بالسعادة حين يعلمون برضوان الله عليهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة : ٧-٨] .

ويبتهجون بالنظر إلى وجهه الكريم :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] .

هذا في الآخرة ، وفي الدنيا وعد الله المستغفرين التائبين بسعة الرزق

وكثرة المال والولد ، كما جاء في دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح : ١٠ـ١٢] .

وجاء في دعوة هود ـ عليه السلام ـ قوله :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ٥٢] .

ووعد الله المتقين المتوكلين عليه بالفرج والعون والرزق الوفير :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢ـ٣] .

وقد أباح القرآن للرجل أن يمنع امرأته من النشوز وأن يحملها على طاعته والقيام بواجباتها وأن يضربها حين لا ينفع فيها الوعظ والتذكير ولا الهجر والامتناع عن معاشرتها : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٣٤] .

وأباح النبي صلى الله عليه وآله وسلم للوالد أن يؤدب أولاده إن قصروا في عبادة الله : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين . وفرقوا بينهم في المضاجع »[1] .

ولكن الضرب المشروع هو الضرب الخفيف غير المبرح ، ولا يجوز إيقاعه على الوجه والرأس : « ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت »[2] .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

(٢) رواه أصحاب السنن وأحمد من حديث معاوية بن حيدة القشيري .

وهو وسيلة غير مرغوب فيها ؛ فبعد الإذن فيه جاء إلى آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم نساء يشتكين أزواجهن فقال : « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم »[1] .

غير أن الذين يهملون واجباتهم ويتعدون حدود الله ، ولا يتأثرون بالأساليب التربوية اللينة ، من الأفضل تحذيرهم بهذه الوسيلة القاسية لكيلا يكونوا بؤرة فساد في المجتمع أو حجر عثرة في طريق تقدمه . ولهذا شرع القصاص والحدود :

والقصاص أن يعاقب المعتدي عمداً على إنسان في نفسه أو أحد أعضائه بمثل عدوانه ، فإن قتله عمداً يقتل ، وأن فقأ عينه تفقأ عينه ، وإن جدع أنفه يجدع أنفه . . إلا أن يعفو ولي القتيل أو من وقع عليه العدوان . قال الله تعالى :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

[المائدة : ٤٥] .

والقصاص هو الذي يمنع القتل وسفك الدماء ، ويصون حق الحياة للناس ، ويؤدي إلى استتباب الأمن والعدل . قال الله عز وجل :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

أما الحدود فهي العقوبات المقدرة في القرآن والسنة ، وهي :

حد الزنى : وقد ذكر في القرآن حد الزاني غير المحصن ، أي الذي لم يتزوج :

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه عن إياس بن عبد الله بن أبي ذئب .

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٢] .

أما المحصن فيعاقب بالرجم ، وقد ثبت ذلك بالسنة الصحيحة ، ومع شدة هذا العقاب فإن هذه الجريمة لا تثبت إلا بالاعتراف الصريح أو شهادة أربعة رجال عدول على أنهم رأوا الزاني وهو يرتكب الفاحشة . وكل من اتهم غيره بها ولم يثبت صدقه بشهادة أربعة رجال فإنه يقام عليه حد القذف وهو الجلد ثمانين ورد شهادته :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٤] .

وبذلك صان الإسلام الأعراض وحفظ الأنساب .

ولصيانة الأموال شرع حد السرقة :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] .

أما قطاع الطرق الذين يعتدون على المسافرين فيعاقبون بالحبس أو النفي إلى مكان لا يتمكنون فيه من فعل جريمتهم إن اقتصروا على التخويف وإلقاء الرعب ، ويعاقبون بقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن أخذوا أموالهم ، وبالقتل إن قتلوا ، وبالصلب والقتل إن قتلوا وأخذوا المال .

وهذا هو حد المحاربة : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

وهناك حد السُّكر وشرب الخمر شرع لصيانة العقل ، وعقابه الجلد

أربعين أو ثمانين ، وحد الردة ، وعقابه القتل ، وقد شرع لحفظ الدين . وقد ثبت هذان الحدان بالسنة . وبالإضافة إلى ذلك هنالك التعزيرات ، وهي العقوبات التي ترك تقديرها للحكام ولم ينص عليها في القرآن والسنة .

وبهذا طهر الإسلام المجتمع ، وقضى على دابر الفساد في الأرض ، وجعل الناس ينعمون بالأمن والحرية ، ويشعرون بالعزة والكرامة ، ولا يغرنك قول من زعم أن هذه العقوبات قاسية لا تتناسب مع المستوى الحضاري الذي بلغته البشرية في هذا العصر ؛ لأن هذه العقوبات شرعت لمنع الناس من ارتكاب هذه الجرائم ، وليس من المناسب أن تكون العقوبات خفيفة يستهين بها المفسدون في الأرض . ويكفي التلويح بهذه العقوبات لمنع معظم الناس من التعدي على حدود الله . وقد فشلت العقوبات الأخرى التي شرعها البشر في منع الزنى والقتل والسرقة . . وليس المجتمع المتحضر بالذي يسمح بالإجرام ، ويتساهل مع المجرمين ، وإنما هو الذي يربي أفراده على الخير والفضيلة ويمنع الشر والرذيلة ، ويسود فيه الأمن والعدل .

ولهذا يكون من المجدي استعمال المثوبات والعقوبات في التربية بالوسائل المادية والمعنوية ؛ فتشجيع المتعلم والثناء عليه وترغيبه ومكافأته إن أحسن ؛ يؤدي إلى تعزيز إجابته واستمرار تقدمه وزيادة فعالياته .

وتأنيب المسيء وعقابه وحرمانه من بعض الأشياء يجعله يعلم أن الأمر جد لا هزل فيه ، فيصبح أكثر يقظة وانتباهاً وأشد حذراً واهتماماً ، فيجتنب الخطأ ويبتعد عن القبيح .

والمربي الحكيم هو الذي يضع كل شيء في موضعه ، ويعامل كل

واحد بما يناسبه ، فلا يؤنب من تكفيه الإشارة ، ولا يضرب من تزجره العبارة . والترغيب والثواب مقدم على الترهيب والعقاب .

حكى الأحمر النحوي[1] عن نفسه قال : « بعث إليَّ الرشيد[2] لتأديب ولده محمد الأمين[3] فلما دخلت عليه التفت إلي وقال : يا أحمر : إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الآثار وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه عن الضحك إلا في أوقاته . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة »[4] .

والطفل الرقيق المرهف الحس لا يحتاج إلى الضرب والعنف ؛ كان سحنون[5] يقول لمعلم ابنه : « لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام ، ليس

---

(١) الأحمر النحوي (... ـ ١٩٤ هـ ، ... ـ ٨١٠م) : علي بن الحسن ، مؤدب المأمون وشيخ النحاة في عصره . أوصله الكسائي إلى هارون الرشيد ، فعهد إليه بتأديب أبنائه . وناظر سيبويه [خير الدين الزركلي/ الأعلام ، ج٥ ص٧٩] .

(٢) هارون الرشيد (١٤٥ـ١٩٣هـ) : هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . ولد بالري ، وبويع بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي سنة ١٧٠هـ . ومات في طوس . كان يصلي كل يوم مئة ركعة إلا من مرض ، ويتصدق كل يوم من ماله بألف درهم [ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ج٥ ص ٨٢ـ١٣١] .

(٣) الأمين (١٧٠ ـ ١٩٨هـ) : محمد بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة سنة ١٩٣ . كان يميل إلى اللهو والعبث ؛ فقتل بعد ذلك بخمس سنين [ابن الأثير/ الكامل ، ج٥ ص ١٣٤ـ١٧١] .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ـ دار المعرفة : بيروت ، ١٤٠٢ هـ ج٣ ، ص ٣٦٢ .

(٥) سحنون (١٦٠ـ٢٤٠هـ ، ٧٧٧ـ٨٥٤م) : أبو سعيد ، عبد السلام بن سعيد بن حبيب=

هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف »[1] .

وذهب محمد بن سحنون[2] إلى أن المعلم لا يجاوز بضرب الأولاد ثلاثة أو عشرة أسواط فقال : « ولا بأس أن يضربهم على منافعهم ، ولا يجاوز بالأدب ثلاثاً إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذا آذى أحداً . ويؤدبهم على اللعب والبطالة ، ولا يجاوز بالأدب عشرة . وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثاً »[3] .

وقال في تعليل هذا المقدار : سمعت مالكاً يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يضرب أحدكم أكثر من عشرة أسواط إلا في حد »[4] .

وقد حذر العلامة ابن خلدون[5] من الإفراط في الشدة والعنف ، وبين

= التنوخي . أصله شامي من حمص ، ومولده في القيروان ، ولي قضاءها حتى وفاته وهو فقيه رفيع القدر ، عفيف أبي النفس ، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب [الزركلي/ الأعلام ج٤ ص ١٢٩] .

(١) آداب المعلمين/ ابن سحنون ، ص ١٥ـ١٦ .

(٢) ابن سحنون (٢٠٢ـ٢٥٦هـ ، ٨١٧ـ٨٧٠م) : أبو عبد الله ، محمد بن سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، ولد في القيروان ، واعتنى أبوه بتربيته وتأديبه ، وبعد أن أخذ حظه من القرآن والعلوم الضرورية تحول إلى مجالس الدروس العالية ثم حج والتقى بعلماء الفسطاط والمدينة المنورة ، وشاع ذكره . وعاد إلى بلده ، وانكب على التأليف والتدريس ، وقصده الطلاب من كل حدب وصوب . كان إماماً في الفقه ، وعالماً بالآثار . له مؤلفات كثيرة في الفقه والعقيدة والحديث والتاريخ والأعلام [ابن سحنون/ آداب المعلمين ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، ص ١٥ـ٣٠] .

(٣) آداب المعلمين/ ابن سحنون ، ص ٨٩ـ٩٠ .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي من حديث أبي بردة .

(٥) ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ ، ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) : أبو زيد ، عبد الرحمن بن محمد ابن أبي بكر ، ابن خلدون الحضرمي . ولد في تونس ، وحصل فيها علومه ، وتنقل=

obeikandl.com

عاقبة ذلك في قوله : « إن إرهاق الجسد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقاً ، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن ، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالاً على غيره في ذلك ، بل وكسلت نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فانتكس وعاد في أسفل سافلين »[1] .

وقد اختلف موقف المربين من العقوبات على مر العصور :

فكانت النظم في الهند قديماً تبيح العقاب الجسدي ، وكان المعلمون يستخدمون العصا وبعض الوسائل الأخرى ، كأن يصبوا الماء البارد على المتعلم[2] .

وكان نظام التربية لدى بني إسرائيل ليناً بعض الشيء ، ومما يقوله

= في بلدان كثيرة ، وحصل على حظ وافر من العلوم الدينية والعقلية والفلسفية . وتردد بين شمال إفريقية والأندلس ، وعمل كاتباً ووزيراً لعدد من الملوك والحكام . ثم انتقل إلى القاهرة ، ودرّس في الأزهر ، وتولى قضاء المالكية فيها . وذهب إلى دمشق لصد تيمورلنك قائد التتر ، وعاد إلى مصر وبقي فيها حتى وافته المنية . وهو مؤسس علم الاجتماع ورائد من رواد العلوم السياسية . وقد حاول في مقدمته تفسير التاريخ على أساس دراسة الأوضاع الاقتصادية والجغرافية للجماعات البشرية ، ووضع مبادى ، واستخلص نتائج ونظريات لم يسبق إليها [مقدمة ابن خلدون ؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي ج١ ص ٢٨ ، ٨٣ ، بول غليونجي ٨٤ـ٨٥] .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢ـ٦٣٣ .

(٢) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ١٤ .

التلمود : « عاقب الأطفال بإحدى يديك ، وداعبهم بكلتيهما » . ومع ذلك فقد كانوا يبيحون العقاب الجسدي للأطفال الذين يجاوزون الحادية عشرة ، وكان من الجائز أن يحرم من جاوز هذه السن من الخبز ، وأن يضرب بشسع النعل[١] .

أما نظام التربية المسيحية الذي ساد أوربا في العصر الوسيط فكان قاسياً ، إذ كانوا يسيئون الظن بالنفس الإنسانية ، ويحاولون أن يرهقوها ويعذبوها ليطهروها . ولقد حرم على الطلاب عام ١٣٦٣م ؛ الجلوس على المقاعد والكراسي بحجة أنها تفسح المجال للكبرياء والغرور . وكان العقاب سائداً وغليظاً ، وكان العقاب الجسدي خاصة كثير الاستعمال متنوع الأشكال ، حتى إن استخدام الدرة ظل منتشراً حتى القرن الخامس عشر . حيث اتخذت التربية اتجاهاً مختلفاً على يد « جيرسون »[٢] الذي طلب أن يجنح المعلمون إلى الصبر والشفقة لأن الأطفال الصغار أسهل انقياداً بالمداعبة واللين منهم بالإرهاب والخوف ، وحارب العقوبات الجسدية ، وطلب من الأساتذة أن يحملوا لطلابهم عطف الأب ورحمته[٣] .

ومن بعده قام المربي الهولندي « إيراسموس »[٤] ودعا إلى استبعاد

---

(١) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ١٧ .

(٢) جيرسون (١٣٦٣ـ١٤٢٦) : كان حامل أختام جامعة باريس ، وعرف بين أبناء عصره بحبه للشعب كتب بلغة عامية رسائل صغيرة مبسطة ، جعلها في متناول العامة ، وينم كتابه الذي كتبه باللاتينية بعنوان : « الأطفال الذين ينبغي أن نهديهم إلى المسيح » عن روح كبيرة فيها الكثير من الوداعة وحب الخير ، وفيه كثير من الملاحظات الدقيقة حول التعليم . وهو يطلب أن يجنح المعلمون إلى الصبر والشفقة ويحارب العقوبات الجسدية [عبد الدايم/ تاريخ التربية ص ٨٨] .

(٣) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ص ٨٧ـ٨٨ .

(٤) إيراسموس (١٤٦٧ـ١٥٣٦) : أديب وفيلسوف ومرب هولندي ، وهو أشهر ممثلي=

النظام القاسي والطرق الوحشية في التعليم ، وأن يستبدل بها طرق التشويق والإغراء[1] .

ومثله « مونتيني »[2] صاحب النزعة الإنسانية الذي احتقر العقوبات الجسدية والنظام القاسي الذي كان سائداً في المدارس الداخلية في زمنه وقال : « إننا بدلاً من أن نحبب الآداب للأطفال ، لا نزودهم في الواقع إلا بالذعر والقسوة ، فانزعوا القسوة والقوة ، إذ لا شيء في نظري أقتل للطفل وأخطر على الطبيعة السلمية منهما . . ولقد ساءني دوماً مثل هذه التدابير التي تلجأ إليها معظم كلياتنا . . إنها لسجن حقيقي لشبيبة أسيرة ، إنك إذا دخلت عليهم لا تسمع إلا صراخ أطفال يعذبهم معلمون قد ملكتهم نشوة الغضب . فيا لها من خطة لإيقاظ الشهوة إلى الدروس

= الحركة الإنسنية الواقعية ، قضى سنوات قليلة في إحدى مدارس الرهبنة ، ثم انتقل إلى مدرسة الكنيسة المشهورة في دافنتر بهولندا ، وحذق آداب القدماء ولغاتهم بالدراسة في باريس واكسفورد وإيطاليا . درّس في إنجلترا وفرنسا والأراضي المنخفضة وسويسرا وإيطاليا ، ونشر كتباً عديدة في الأدب وقواعد اللغة اللاتينية والإغريقية ، وشرح الكتاب المقدس والأخلاق والتربية والأمثال [عبد الدايم/ تاريخ التربية ص ٢٢٧ـ٢٣١ بول منرو/ المرجع ج٢ ص ٣٥ـ٤٠ ، ١١١ـ١١٢] .

(١) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ص ٢٢٨ .

(٢) مونتيني (١٥٣٣ـ١٥٩٢) : يمثل ميشيل مونتيني النزعة الواقعية الاجتماعية في التربية وقد عاش في فرنسا في العصر الذي بلغت فيه الحركة الأدبية قمتها ، وبلغت فيه فكرة إحياء العلوم الأدبية القديمة الذروة العليا . رباه والداه بلطف وحرية دون قسوة أو إكراه . وهو يرى أن التربية هي فن تكوين إنسان بالمعنى الكامل ، وأن غاية الثقافة أن يصبح التلميذ خيراً مما هو وأنفذ بصيرة وأسلم حكماً وتفكيراً . وهو يخضع كل شيء للأخلاق والفضيلة ، ولا يعتمد الكتب بقدر ما يعتمد التجربة وملاحظة الأشياء والأشخاص . وهو يعتقد أن أحسن وسيلة للتربية هي الاحتكاك المباشر بالحياة . ولكنه احتقر المرأة ورأى أن تبقى في الجهالة [منرو/ المرجع في تاريخ التربية ج٢ ص ١٢٤ـ١٣٢ ، عبد الدايم ٢٤٠ـ٢٤٧] .

ولتوجيه تلك النفوس الغضة السريعة الخوف إلى تلك الدروس بيدين مسلحتين بالدرر ويا له من مظهر سيىء للعدالة قتال . . أو ليس من الأليق أن نغرس صفوفهم بالأزهار والأوراق بدلاً من أن نغرسها بقضب القصب الدامية »[1] .

ثم جاء « جون لوك » فمنع العقاب الجسدي وحكم على الدرة بقوله : إن الدرة أداة خنوع تجعل الطبع ذليلاً[2] .

غير أن « مالبرانش »[3] رأى أن تحذف كل المكافآت الحسية ، وأبقى على العقاب المادي ، وأجاز الضرب بالدرة[4] .

* * *

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يشير إلى أهم الوسائل التربوية الحديثة ، ويترك اختيار الأسلوب المناسب لحكمة المربي وخبرته وحال الذين يتعامل معهم والبيئة التي يعيشون فيها ولتغير الظروف على مر الزمن .

* * *

---

(١) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ٢٤٢ .

(٢) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ٣١٠ .

(٣) مالبرانش (١٦٧٨ـ١٧١٥) : مثالي متصوف ، يرى أن أول عمل واجب هو أن نغذي الطفل بالحقائق المجردة ، ويجب العزوف عن الثقافة الحسية ، ونهى عن الاعتماد على اللذات والآلام والمكافآت الحسية في التربية ، واستبقى مع ذلك العقاب بالدرة [عبد الدايم/ تاريخ التربية ص ٣٠١ـ٣٠٣] .

(٤) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ٣٠٢ .

obeikandl.com